حوار مع الدكتور فتحي حسن ملكاوي..

المدير الإقليمي للمعهد العالمي للفكر الإسلامي الأردن

حاوره الدكتور عبد الرزاق بلعقروز..

رئيس التحرير

السؤال الأول: نريد أن نعرف عن شخصكم الكريم أوَّلًا، ونُعرِّف جمهور القراء بكم، وأنتم الغني عن أي تعريف، وثانيًا كيف تبررون جمعكم في التَّكوين بين العلوم الطبيعية وبين اتجاهكم أو انتقالكم بصورة مباشرة وفاعلة إلى إنجاز التَّكامل بين علوم الوحي وعلوم الإنسان؟

أَعُدُّ نفسي معلمًا أردنيًّا، عملت في التعليم المدرسي والإشراف التربوي، وإعداد المعلمين وتطوير المناهج وتأليف الكتب المدرسية، ثم في التعليم الجامعي في كلية العلوم التربوية. نشأت في بيئة تعليمية لم يكن

اختيار التخصص في الدراسة الثانوية، أو الجامعية من شأن الطالب، وإنَّما كان قرارًا إداريًّا يُبنى على نتائج التَّحصيل الدراسي. وعلى المستوى الشخصي كنت أقبل ما يتاح لي، من باب: «إذا لم يكن ما تريد؛ فأرد ما يكون»؛ **ولذلك:** كنت أَقبل بما يتاح على أية حالٍ. ولـمَّا كانت دراستي الجامعية في سوريا وبريطانيا وأمريكا، كلها منحًا دراسية، فكان لا بُدَّ كذلك من قبول ما كانت تتيحه المنحة الدرسية.

فدراساتي الأكاديمية في الكيمياء والجيولوجيا أوَّلًا في جامعة دمشق، وتدريس العلوم في جامعة ردينغ في بريطانيا، وعلم النفس التربوي في الجامعة الأردنية، وتدريس مناهج العلوم في الولايات المتحدة الأمريكية، كلها مـمَّا كان محددًا سلفًا دون اختيار غير هذه التخصصات.

ومع ذلك؛ فقد كان هناك بعض هوامش الاختيار في البرنامج الدراسي، حيث كنت أختار من المواد ما أشعر أنَّني بحاجة إليه، على الرغم من أنَّه قد يكون الاختيار الأصعب، وأنَّني أخذت زيادة على ما هو مطلوب.

كما حصل على سبيل المثال في برنامج الدكتوراه في الولايات المتحدة، فالبرنامج أساسًا يتضمن اختيار تخصص فرعي هو المناهج، لكنَّني أخذت بالإضافة إليه تخصصين آخرين، هما: مناهج البحث وفلسفة العلوم، واخترت أن أقدم امتحان التخصص الفرعي في الدكتوراه في فلسفة العلوم وكان في غاية الصعوبة بالنسبة إلي، ولم أكن مضطرًا إليه.

فالجمع بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية والاجتماعية في هذه البرامج كان في الأساس نتيجة للبرنامج الدّراسي الذي حصَّلت المنح الدّراسية من أجله، وكنت أميل إلى الربط بين الفئات الثلاث من العلوم: الطبيعية، والإنسانية، والشرعية، مدفوعًا بعدد من الأسباب، منها: صلة العلوم الإنسانية والاجتماعية بالواقع الاجتماعي للأمة، وهو ما كنت أشعر منذ فترة مبكرة من حياتي بأنَّه واقع لا يسُر.

ومنهـا: أنَّ كثـيرًا مـن المتخصصـين في العلـوم الشرعيـة إنَّمـا كانوا دون المسـتوى الـذي كنـت أتمنـى أن أراهـم فيـه. وكنـت قـرأت تقسـيم ابـن حـزم للعلـوم عـلى سـبعة أقسـام جمعهـا في فئتـين: **فئـة خاصـة بالأمـة** وهـي الديـن واللغـة والتاريـخ، ولـكل أمـة خصوصياتهـا في هـذه العلـوم الثلاثـة، والعلـوم الأربعـة الأخـرى هـي **مشـتركة بـين الأمـم**.

والفئـة الأولى هـي مـا وجدنـا المرحـوم الفاروقـي يسـميها علـوم بنـاء الأمـة. وربمـا كان الوعـي الدينـي الـذي يـسره اللـه لي، بفضلـه -سـبحانه- في وقـت مبكـر، قبـل مرحلـة التخصـص، عامـلًا مهـمًّا في ربـط المـادة العلميـة التـي كنَّـا نتعلمهـا في المـدارس بمـا أتيـح لنـا مـن الفهـم الدينـي، ولا أنـسى تأثـير عبـارة الإهـداء التـي جـاءت في كتـاب الكيميـاء المـدرسي للصـف الحـادي عـشر وختـام الإهـداء بآيـة قرآنيـة، كان لهـا وقـع كبـير في النفـس، وهـي قولـه -سـبحانه-:

«سَـنُرِيهِمْ آيَاتِنَـا فِي الْآفَـاقِ وَفِي أَنْفُسِـهِمْ حَتَّـىٰ يَتَبَـيَّنَ لَهُـمْ أَنَّـهُ الْحَـقُّ أَوَلَـمْ يَكْـفِ بِرَبِّـكَ أَنَّـهُ عَـلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَـهِيدٌ» (فصلـت: ٥٣)، وكان هـذا التأثـير يتعمـق مـع مزيـد مـن تعلـم العلـوم، فـكل مـا نـراه مـن بدائـع العلـم في أشـياء الكـون وظواهـره وأحداثـه أو في ظواهـر النفـس والمجتمـع إنَّمـا هـي آيـات تبـيِّن أنَّ اللـه هـو الحـق.

وعندمـا بـدأت الحيـاة العمليـة في تدريـس العلـوم الطبيعية (عـام ١٩٦٦م)، كان منهـج التعليـم الـذي ارتحـت إليـه، ثـم أسـهمت في جعلـه منهجًـا في تأليـف كتـب العلـوم عندمـا عملـت عضـوًا للكيميـاء في مديريـة المناهـج في وزارة التربيـة والتعليـم، كان هـذا المنهـج يربـط المـادة العلميـة بأربعـة أمـور: تاريـخ الموضـوع، وعلمائـه، وتطبيقاتـه العمليـة، وموقعـه في الفكـر الدينـي.

السـؤال الثانـي: ثمـة اهتـمام منكـم لافـت، بمـشروع التَّكامـل المعـرفي؛ مـا هـي أصـول هـذا المـشروع في الـتراث المعـرفي الإسـلامي؟ وإلى أي مـدى يمكـن الاسـتفادة المنهجيـة مـن هـذا المـوروث في البنـاء المعـرفي الراهـن؟

مفهوم التكامل المعرفي كان واضحًا عندي وحاضرًا في ممارستي للتعليم والتعلُّم، قبل أن يصبح مصطلحًا يستعمل في الحديث والكتابة.

وأكثر ما كنت أشعر بضرورة هذا المفهوم هو في تدريس مناهج البحث في معاهد إعداد وتدريب المعلمين، في الستينيات والسبعينيات، ثم في التدريس الجامعي في الثمانينيات والتسعينيات.

وعندما كنت أشارك مع فريق من العلماء والباحثين في تطوير مرجع في المنهجية الإسلامية، أدركت أنَّ الإطار المرجعي لِمَا أسميناه (المنهجية الإسلامية) هو التكامل المعرفي؛ لذلك: أصدرت كتابي عن المنهجية بعنوان: «**منهجية التكامل المعرفي: مقدمات في المنهجية الإسلامية**».

ولم أجد صعوبة في التأصيل لهذا المفهوم والمصطلح في التراث؛ إذ كنت قد كتبت قبل ذلك بحوثًا استشهدت فيها بنصوص متعددة من مثل: «**درء تناقض العقل والنقل**» لابن تيمية، و«**الاتصال بين الشريعة والحكمة**» لابن رشد، والحاجة إلى العلم بالطب والفلك وغيرهما من العلوم لفهم آيات القرآن الكريم ذات الصلة بهذه العلوم عند أبي حامد الغزالي، والرازي الذي رأى أنَّ دراسة الفلك هي تفسير لقوله -سبحانه-:

«**أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ * وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ**» (ق: ٦ - ٨)، وحتى عندما أصبحت تعبيرات التكامل مثل الجمع بين القراءتين، والآيات المنظورة والآيات المسطورة وغيرها من التعبيرات تشيع في الكتابات الحديثة لم يكن ذلك عندي إلَّا إعادة صياغة لِمَا كتبه ابن القيم في كتاب «**الفوائد**» حين فسر قوله -سبحانه-: «**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ**»، بقوله: «فأخبر أنَّه لا بُدَّ أن يريهم من آياته المشهودة ما يُبيِّن لهم أنَّ آياته المتلوة حق».

وظني أنَّ مسألة الاستفادة من الموروث في البناء المعرفي الراهن لا ينبغي أن تستند على الكشف عن نصوص التكامل في الموروث فحسب؛ وإنَّما في تفعيل فكرة التكامل المعرفي في صياغة مناهج التعليم والتدريب المعاصرة كذلك، وفي التنويه بقيمة هذا التفعيل ودوره في الاستيعاب الفكري والتفاعل النفسي والتطبيق العملي.

السؤال الثالث: أشرتم في كتابكم «منهجية التكامل المعرفي» أنَّ أنماط المعرفة الغربية، أضحت تسعى إلى الجمع بين الثقافتين أو الثقافات الثلاث، وهي الطَّبيعية والإنسانية والاجتماعية، فما هي مظاهر الأزمة في المنظومة المعرفية الغربية فيما يخصُّ انفصال المعارف؟ وهل هذه الجهود كافية من منظور منهجية التكامل المعرفي بالمعنى الذي تقدّمونه في إنتاجاتكم؟

مفهوم التكامل المعرفي في السياق الغربي جاء كردٍّ فعل على الغلو في التخصصات الدقيقة التي ولدت ثقافات منفصلة يصعب إقامة حوارات بينها، وجاءت كذلك نتيجة الحاجة إلى الرؤية الكلية لأفكار التطور والنمو، التي يقتضيها الاقتصاد الرأسمالي، فتولدت الموضوعات المتداخلة والتخصصات التي تحاول إقامة تكامل بين موضوعات العلم، وبين خبرات العلماء، وبين متطلبات التنمية. وبقدر ما أسهمت التطبيقات العملية لمفهوم التكامل المعرفي في امتلاك القوة والهيمنة، والتقدم الصناعي؛ إلَّا أنَّها عجزت عن إدراك البعد الإنساني والاجتماعي. فحياة الإنسان المعاصر، أفقدته التمتع بوعود الحداثة، وأصبح أكثر ميلًا لفلسفات ما بعد الحداثة، وما ترتكز عليه من مفاهيم التقويض والتفكيك والعدمية والفوضى.

ونستطيع في هذا السياق أن نتذكر أنَّ الفكر الغربي في تطوره كان يمارس في معظم الوقت لعبة الانتقال من الشيء إلى ما يناقضه، فقد كانت مرحلة الحداثة قطيعة مع ما سبقها، ومع أنَّ للحداثة فضائل لا تنكر؛ فإنَّ فلسفات ما بعد الحداثة أخذت

تنتشر بقوة، ولا سيما منذ منتصف القرن العشرين؛ لتحاول إنجاز قطيعة أخرى مع الحداثة. هذا التردد بين المتناقضات كان يؤدي في مختلف المراحل إلى تغييب البعد الإنساني والاجتماعي والأخلاقي عن دوائر صنع القرار السياسي والاقتصادي، وما يمتلكونه من آلات إعلامية طاغية، تحاصر أصوات النزعة الإنسانية وتحد من أثرها في الثقافة السائدة.

ولذلك: فإنَّ ما أشرنا إليه من نصوص في المنظومة المعرفية الغربية حول مفاهيم التكامل رغم قوتها وشدة الحاجة إليها، لا يتوقع لها أن تولد زخمًا على المستوى العملي في هذه المرحلة من الهيمنة الغربية وسعارها في التنافس الاقتصادي والعسكري.

السؤال الرابع: كيف تتصوَّرون مخاطر الفصل واستتباعاته المنهجية ما بين علوم الوحي وعلوم الإنسان؟

نمت بذور العلوم الإنسانية والاجتماعية في المجتمع الإسلامي في حضن معارف الوحي بصورتها التقليدية، وعلى الرغم من تطور بعض المباحث بصورة اقتربت من التخصص، لا سيما بعض مباحث الفكر التربوي والنفسي والسياسي والاقتصادي؛ إلَّا أنَّها بقيت مشدودة بقوة إلى علوم الوحي، وهذه على كُلِّ حال كانت منهجية العقل المسلم التي تؤمن بالتكامل بين العقل والنقل.

لكن ذلك التطور تأثر سلبًا بصور من الصراع والتشدد المذهبي والفرقي، الذي كان أشد ميلًا في معظم الأحيان إلى المحافظة على الموروث الفكري، والتردد في الانفتاح والتجديد في تفسير النصوص.

وجاءت الانطلاقة الأوروبية في هذه الفترة بثورة فكرية عميقة ولدت زخمًا من النمو والتطور المعرفي، وأنتجت من عوامل القوة ما سيطرت به على معظم أنحاء العالم الإسلامي، ووجد الفكر الإسلامي نفسه في مواجهة علوم متخصصة بنيت على قطيعة مع علوم الوحي، وهي بعد ذلك علوم الأقوياء.

وتوزعت ردود الفعل ما بين محافظة شديدة على علوم التراث، تحذر من العلوم الحديثة التي أنتجها الغرب، أملًا في إعادة إنتاج التجربة التاريخية الإسلامية في الواقع المعاصر؛ وبين انطلاق جامح في أخذ علوم الغرب الحديثة بحلوها ومُرها، ونبذ أي مرجعية غيرها.

وعلى الرغم من وجود منظري الوسطية، ودعاة الجمع بين علوم الوحي والعلوم الحديثة وظهور مفاهيم ومصطلحات التأصيل والأسلمة والتكامل المعرفي وغيرها، ونجاح هؤلاء في بناء بعض النماذج الجيدة؛ فإنَّ قوى العولمة وقيودها وإكراهاتها وإلحاح متطلباتها المتجددة، وغياب استقلالية القرار لأصحاب النفوذ في المجتمعات الإسلامية، وأفكار التوجس من كل توجه إسلامي، لا تزال تعيق أي انطلاقة قوية تري الناس قيمة الأفكار الخاصة بالتكامل المعرفي الذي يبني منظومة التعليم ويشكل شخصية الإنسان في فكره وسلوكه، ويعيد بناء المجتمع القادر على الانطلاق في تجربة حضارية تستوعب المفيد من إنجازات الإنسان المعاصر وتوجهها بقيم الوحي الرباني.

السؤال الخامس: تُعدُّ منظومة القيم العُليا، إطارًا منهجيًّا جامعًا لأوْجُه النَّشاط الإنساني برمته، ورؤية إلى العالم مخصوصة، فهل يمكن أن تُشَكّلَ هذه المنظومة أساسًا منهجيًّا لإعادة التَّكامل بين علوم الوحي وعلوم الإنسان؟

منظومة القيم العُليا المشار إليها في السؤال كانت فصلًا من فصول كتاب «**منهجية التكامل المعرفي**»، باعتبار أنَّ إعمال هذه المنظومة يعد مبدأ من مبادئ منهجية التكامل المعرفي.

وعناصر هذه المنظومة الثلاثة: التوحيد والتزكية والعمران تكون مرجعية لتحقيق مقاصد الدين في مجملها، وهي تعبير عن حقائق الأمور ووقائعها، كما جعلها الله الواحد سبحانه، وكونها منظومة يعني تأكيد الصلة الوثيقة فيما بين

العناصر الثلاثة وتكامل هذه العناصر في تغطية المجال الذي تعمل فيه، فالتوحيد رأس الأمر في التفكير الإسلامي وجوهر التجربة الدينية، كما يقول الشهيد إسماعيل الفاروقي، وأساس البناء في الحضارة الإسلامية، وتزكية قلب الإنسان ومشاعره وامتداد هذه التزكية إلى معاملاته وأنماط سلوكه، عنصران يتضافران في تمثلاتهما العملية في بناء المجتمع وعمرانه الحضاري، وتحقيق الاستخلاف البشري، وبذلك تظهر خصائص الترابط والتكامل بين عناصر المنظومة في جوانبها المعرفية؛ فالتوحيد يعنى ببناء النظام العام للاعتقاد وتفرعاته المعرفية، والتزكية هي التمثل العملي للشخصية الإنسانية وتفرعاتها النفسية والعقلية، والعمران هو الصورة العامة للنظام الاجتماعي وتفرعاته السياسية والاقتصادية وتطبيقاتها العملية في الصناعة والتنمية والتطوير، فالتكامل ليس بين عناصر المنظومة فحسب؛ وإنَّما في جمعها لجوانب الحياة البشرية، وما يتخللها من صور النشاط الإنساني، النظري والعملي.

السؤال السادس: وكيف يمكن أن ننظر إلى هذه المنظومة باعتبارها مدخلًا أساسيًّا لإصلاح الفكر والمنهج؟

إصلاح الفكر والمنهج في الأساس هو بناء معرفي نظري، لكنَّه في نهاية المطاف واقع عملي لا بُدَّ أن تظهر نتيجته في السلوك البشري.

ومن هنا تظهر أهمية الإصلاح وبناؤه على الأساس السليم. والصور العملية للنشاط البشري في الحياة ليست مجرد ممارسات عشوائية اعتاد الإنسان القيام بها دون إرادة وحرية في الاختيار، وإنَّما هي اختيار مبني على فهم نتائج السلوك، ويتم ضمن معايير تضبطه لتحقيق تلك النتائج.

فمنظومة القيم العُليا في الرؤية المعرفية الإسلامية هي صورة لفهم الإنسان المسلم لدينه عقيدة وعبادة ونظامًا للحياة؛ فالتوحيد -مثلًا- هو الركن الأول في الإسلام الذي يتمثل في الشهادتين، وبذلك يكون قيمة عليا تقوم عليها، وتتقوَّم بها سائر الأركان

الأخـرى، وتكـون الأركان الأخـرى وسـيلة للتزكيـة والتطهـير والترقيـة التـي يحتاجها الإنسـان فـردًا وجماعـة، فالصـلاة -مثـلًا- وسـيلة للنهـي عـن الفحشـاء والمنكـر، وإيتـاء الـزكاة وسـيلة لتطهـير الجماعـة وتزكيتهـا، والصيـام وسـيلة للترقـي في مراتـب التقـوى، وأداء الحـج ليشـهد النـاس منافـع لهـم، وهكـذا.

وإذا كانـت القيـم العُليـا معايـير لضبـط مـا ينبثـق عنهـا مـن قيـم فرعيـة، فسـنجد حيـاة الإنسـان في الدنيـا في مجالاتـه كافـة متَّسـقة فيـما بينهـا؛ لانبثاقهـا مـن المصـدر نفسـه، ولاتسـاقها كذلـك مـع أشـواقه وآمالـه في مـا يـود الحصـول عليـه في الآخـرة.

فالإصـلاح العـام الـذي يبـدأ بإصـلاح الفكـر والمنهـج لا بُـدَّ أن يعتمـد عـلى هـذه المنظومـة ويـدرك التكامـل فيـما بـين عناصرهـا. وإذا أمكـن صياغـة مناهج التربيـة والتعليـم عـلى أسـاس هـذه المنظومـة القيميـة فسـتظهر نتائجهـا في البنـاء النفـسي والعقـلي لشـخصية الإنسـان، الصالـح المصلـح.